تجـــن

إذا أخطأت الحكومة فبين المعارضون خطأها ، وطلبوا إليها أن تصلحه ، وإذا قصرت الوزارة فأظهر المعارضون تقصيرها وطلبوا إليها أن تنصرف عنه ، وإذا شطت الوزارة فبين المعارضون شططها وطلبوا إليها أن ترتد إلى شيء من القصد والاعتدال ، غضبت الوزارة واشتد غضبها ، وشكت الوزارة وأشتدت شكاتها ، وفكرت الوزارة فى البأس والبطش وهمت بهما ، وأندفعت فيهما ما وجدت إليهما سبيلا ، وقال أنصار الوزارة وأعوانها فى هؤلاء المعارضين إنهم يتجنون ويتكلفون اللوم ، ويأبون إلا النقـــد ، لا يريدون به خيرا ، ولا يبتغون به منفعة ، وإنما يذهبون به إلى إحراج الوزارة وأخـــذ الطرق عليها واضطرارها إلى أن تدفع عن نفسها بالشدة فتغلو فى الدفاع . وإذا عمد رئيس الوزراء إلى دستور كان قائما يؤمن له الناس ويحبونه ويرون الطاعة له فرضا لأنهم عاهدوا الله على ذلك ، وأقسموا عليه بمحرجات الأيمان ، إذا عمد رئيس الوزراء إلى هذا الدستور فأقام مكانه دستوراً آخر ، ولم يسلك إلى ذلك الطريق الدستورية المنصوص عليها فيه والتى كانت مشروعة مفروضة فأنكر الناس ما فعل رئيس الوزراء ، ورغب الناس فى أن يعود إليهم هذا الدستور ، ولم يسلكوا إلى ذلك إلا الطريق المشروعة المباحة التى لا إثم فيها ولا تثريب ، قال رئيس الوزراء إنهم ثائرون ، وقال أعوانه وأنصاره معه نعم ، إنهم ثائرون . وإذا أباح الدستور القائم للناس أن يقولوا ما وسعهم القانون ، وأن ينتقلوا ما وسعهم القانون ، وأن يستمتعوا بحريتهم كما يستمتع بها رئيس الـــوزراء وأصحابه ، قال رئيس الوزراء إنهم ثائرون ، وحال رئيس الوزراء بينهم وبين القول ، وحال رئيس الوزراء بينهم وبين الانتقال ، وحال رئيس الوزراء بينهم وبين الاجتماع ، وصدهم رئيس الوزراء عن أسفارهم وعن أنديتهم بأيدى الشرطة وعصيها وسياطها . وأبى رئيس الوزراء عليهم أن يلقى بعضهم بعضا أو يزور بعضهم بعضا ، أو يتحدث بعضهم إلى بعض ، وأرصد رئيس الوزراء لهم الشرطة تطوف حول بيوتهم ، وتقوم على أبوابهم وتتبعهم إذا بكروا وتتعقبهم إذا راحوا وتقتحم عليهم مساجد الله إذا أدوا فيها الصلاة ، وسكت الأجانب على هذا كله ، واطمأن الأجانب إلى هذا كلـــه ، ورضى

الانجليز عن هذا كله وقالوا : مصر بلد مستقل فلا ينبغى أن ندخل بين حكومته وأهله ، وأثنوا على رئيس الوزراء وعلى أعوانه وأنصاره ، لأنهم يثبتون النظام بهذه السيرة ، ويقرون الأمن بهذه الخطة . وإذا طغى الأجانب على المصريين فتحكموا فى منافعهم ومرافقهم ، وازدروا حريتهم وكرامتهم وعرضوا فريقا منهم للجوع والحرمان . وأظهر المصريون شيئا من استنكار ذلك أو السخط عليه ، غضب الأجانب وأسرفوا فى الغضب ، وشكا الأجانب وألحوا فى الشكوى ، وقال الأجانب إن فى مصر بغضاهم ، وائتمارا بهم وتحريضا عليهم . واستعان الأجانب على المصريين بالإنجليز ، وشكا الأجانب من المصريين إلى الوزارة المصرية . وإذا اعتدى المبشرون من الأجانب على صبيان المصريين من أبنائهم وبناتهم ففتنوهم فى دينهم لا يفرقون فى ذلك بين المسلم والمسيحى واليهودى ، وسلكوا إلى ذلك طريق الإكراه والتعذيب حينا ، وطريق الإغواء والإغراء حينا آخر ، وطرق العبث والخداع وإفساد الإرادة بالتنويم المغناطيسى مرة ثالثة . إذا فعل المبشرون هذا كله وقامت عليه الحجة الواضحة ونطقت به الحقائق الواقعة ، واعترف به المبشرون أنفسهم ، واعترفت به الوزارة نفسها ، واعترف به البرلمان نفسه ، ثم أنكره المصريون ، واحتجوا عليه وطلبوا أن يصرف عنهم هذا الشر ، ويرفع عنهم هذا الضر ، غضب الأجانب وسخط الانجليز وقالت التيمس إن المعارضين يتخذون قضية التبشير وسيلة إلى إحراج الحكومة والكيد لها ، ولم يتحرج أنصار الوزارة نفسها من أن يقولوا كما تقول التيمس ويتهموا المعارضين بمثل ما تتهمهم به التيمس ، ويزعموا أن المعارضين لا يقولون ولا يعملون إلا ليحرجوا الوزارة ويكيدوا لها ويسلطوا عليها أنواع الإحراج والتعجيز . ومعنى هذا كله أن المصريين يجب أن ينكروا أنفسهم وينزلوا عن حقهم فى الحياة الحرة ويرضوا بما قسم الله لهم من الذلة والخضوع ، لا ينبغى لهم أن يلوموا الوزارة إن أخطأت أو قصرت أو شطت لأن ذلك إحراج للوزارة وتجن عليها . ولا ينبغى لهم أن يشكوا أو يتبرموا إن طغى الأجانب على مرافقهم ، واستأثروا من دونهم بالخير فى بلادهم ، لأن ذلك بغض للأجانب وكيد لهم ، ولا ينبغى أن يسخطوا ولا أن يستعدوا الوزارة على المبشرين إذا اعتدى هؤلاء المبشرون على الأطفال فى الدين والأخلاق والأعراض ، لأن ذلك إغراء بالفتنة ، وتحريض عليها ، ولأن ذلك إحراج للوزارة ، وخروج على النظام .

يجب إذن ألا يكون المصريون ناسا من الناس فلا يحسوا شيئا ولا ينكروا شيئا ، ولا يشكوا من شىء ، لأنهم إن أحسوا شكوا وأنكروا ، وهم إن شكوا أو أنكروا ثائرون أو

كائدون أو محبون للفتنة وراغبون فيها . ولا تقل إن هذه الحال التى تريد الوزارة وأنصارها ، والتى يريد الأجانب والانجليز أن يردوا إليها المصريين غير ملائمة لطبيعة الأشياء ، ولا ملائمة للحق والعدل والإنصاف ولا ملائمة للكرامة الإنسانية اليسيرة ، فإن الأمر فى هذة الأيام ليس إلى طبيعة الأشياء ، ولا إلى الحق والعدل والإنصاف ، ولا إلى الكرامة الإنسانية ، وإنما هو إلى المنافع وإلى منافع الأقوياء خاصة . فيجب أن تجرى سفينة الوزارة على بحر هادىء مطمئن مستقر ، لا تعصف به الريح ، ولا يضطرب فيه الموج . وإنما يداعب صفحته النسيم . ويجب أن تضطرد أمور الأجانب على خير ما يحبون ، لا يجدون من المصريين مقاومة ، ولا شيئا يشبه المقاومة . ويجب أن تجرى أمور المبشرين على أحسن ما تجرى عليه فى أى بلد من الأرض فلا يغضب الآباء والأمهات إذا خضع أبناؤهم وبناتهم لأنواع العدوان .

يجب أن يكون المصريون كقطعة العجين يشكلها الأقوياء كما يحبون فلا يجدون منها مقاومة ولا امتناعا ، وإنما يجدون منها مرونة وطاعة ولينا . ولا تقل إن الأجانب أنفسهم فى بلادهم يعارضون الوزارات وينصبون لها الحرب ، ولا تقل إن الأجانب فى بلادهم لا يرضون بحال من الأحوال أن يعتدى على الدين والأخلاق والأعراض ، وأن يكون المعتدون من الغرباء . لا تقل شيئا من هذا ، فهذا كله حق لا شك فيه ، ولكنه حق فى أوروبا وأمريكا ، فلا ينبغى أن يكون حقا فى مصر ، لأن فى أرض مصر وسمائها ، وفى هواء مصر ومائها عناصر خاصة لا تكاد تتسلط على الحق حتى تجعله إجحافا . فى إقليم مصر عناصر خاصة تفرض على المصريين أن يحتملوا مالا يحتمل أحد غيرهم ، وأن يتعرضوا لما لا يتعرض له أحد غيرهم وأن يؤخذوا بمالا يؤخذ به الناس .

هؤلاء الأجانب من المبشرين وغير المبشرين يخشون الفتنة ويشفقون منها ، ولكنهم يثيرونها ويلحون فى إثارتها فمن المحقق أن المصريين لم يدعوهم إلى مصر ، وإنما هم الذين جاءوا مصر طائعين ومن المحقق أن المصريين قد شكوا إلى حكومتهم واستعانوا بهذه الحكومة ، ومازالوا يشكون إليها ، ويستعينون بها على إتقاء الفتنة قبل وقوعها — والاحتياط للشر قبل أن يصيب الآثم والبرىء . ومن المحقق أن المصريين - على كثرة ما يجدون من الشر ، ويحتملون من الضر — يتواصون بالصبر، ويتواصون باللين ، ويتواصون بالمحافظة على الأمن والنظام ، ولكن هؤلاء المبشرين لا يقفون عند شىء من ذلك ولا يحفلون بشىء من ذلك ، وإنما يريدون أن يباح لهم كل شىء ، ويؤذن لهم فى

كل شيء ، وألا يقاوموا فى شيء فإن رضى المصريون بهذا فذاك وإلا فهم أصحاب الفتنة والدعاة إليها ، وهم أعداء الأمن ، والخارجون على النظام .

هذا كثير وأكثر منه أن تقبله الوزارة وتصبر عليه ، فالوزارة مصرية على كل حال . ومهمايكن مذهبها فى الحكم ، ومهما يكن رأيها فى سياسة الشعب فإن من الحق عليها لنفسها أن لا ترضى أن يقال عن المصريين إنهم أصحاب فتنة مع أنهم أبعد الناس عنها ، وأحرص الناس على ألا تكون .

ليس من الحق (والوزارة نفسها تعلم أن ليس من الحق) أن المعارضين يتخذون قصة المبشرين وسيلة إلى إحراجها . وإنما الحق الذى لا شك فيه أن المعارضين قد أرادوا ومازالوا يريدون وسيريدون دائماً أن تنهض الحكومة بما خلقت له ، وهى إنما خلقت قبل كل شيء لحماية المواطنين من العدوان الخارجى ، ومن فساد النظام واضطراب الأمن فى داخل البلاد ، وليس حماية للمواطنين من العدوان الخارجى أن يترك المبشرون يفدون عليهم من كل مكان فيعبثون بصبيانهم ويسيئون إليهم فى الدين والكرامة والأخلاق ، وليس من إقرار الأمن وتثبيت النظام أن يخلى بين هؤلاء المبشرين وبين القصر والضعفاء يعبثون بهم كما فعلوا إلى الآن .

فالمصريون لا يثورون بأحد ، ولا يريدون شرا لأحد ، ولا يضمرون مكرا بأحد ، آمنين مطمئنين على ما يحب الناس أن يأمنوا عليه من الدين والكرامة والأخلاق والمنافع ، وهم يطلبون إلى وزارتهم أن تنهض بهذا الواجب على وجهه أو تستقيل .